تسلط الصغار على الكبار في القديم والحديث «ولكل قوم وارث»

«الحمد لله الذي ثبتت أركان الدين بأئمة أهل السنة وأعلامهم، وجعل خلفاء نبيه أتباعه في الدنيا ويوم يدعى كل أناس بإمامهم، وسلك بهم مسلك السداد، ومهد لهم طرق الهدى والرشاد، وعصمهم باتباع سنن رسوله - عليه الصلاة والسلام - من الزيغ والضلال والشبه والأوهام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشريعة الغراء، الواضحة البيضاء، وعلى آله أئمة الدين، وصحابته الهادين المهديين، أما بعد»^(١):

فهذا مقال دفعني لكتابته موضوع قرأته في الكتاب الممتع «قع المعاند وزجر الحاقد الحاسد» لريحانة اليمن شيخ مشايخنا أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي -رحمه الله- بعنوان: «الإشفاق على الطالب العاق»، فقدمت فيه وأخرت، وعدلت فيه وغيرت، وزدت فيه ونقصت، حتى استوى على سوقه وأركانه، فتم حينها صرحه وبنائه، حيث اشتمل على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وأبدأ مستعينا بالله بالمقدمة فأقول:

1/ مقدمة في وجوب طاعة العلماء وتحريم إذايتهم:

إن الله خلق الناس لعبادته، وأرسل إليهم رسلا لتبليغ دينه وشرعته، وأنزل عليهم كتابه هدى للناس وفرقانا، وتفصيلا لكل شيء وتبيانا، فيه خبر ما قبلنا ونبا ما بعدنا وحكم ما بيننا، من اعتصم به نجا ورشد، ومن أعرض عنه غوى وشذ وانفرد.

وبما أمر الله به في كتابه، وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته، وجوب طاعة العلماء واحترامهم، وتبجيلهم وتوقيرهم، وتحريم أذيتهم والتسلط عليهم والظعن فيهم والتنقص من قدرهم.

روي عن عكرمة -رحمه الله- أنه قال: «إياكم أن تؤذوا أحداً من العلماء؛ فإن من آذى عالماً فقد آذى رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، والعلماء هم حراس الدين وحجته من الابتداع والتزييف».

قال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى: «سنة الله في كل من أذرى العلماء بقي حقيراً». (تاريخ الإسلام، 135/13، من الشاملة).

غير أنه من المعلوم شرعا وقدرًا، انقسام الناس تجاه أوامر الله إلى مطيع مفلح مشكور، وإلى عاص خاسر مشبور.

2/ المبحث الأول: وصف حال الطاعنين في العلماء في الساحة الدعوية والرد على بعض شبه ضعفاء القلوب:

إن المتأمل فيما جرى ويجري في الساحة الدعوية، ليرى بما لا يدع مجالاً للشك والريب، ولا يترك منفذاً لحسن الظن، صنوفاً وأنواعاً من احتقار العلماء والتعالى عليهم، والإضرار بهم، والظعن فيهم تلميحاً وتصريحاً، كيف لا؟، وقد نشرها في تغريداتهم الملفقة، وقيدوها في مجموعاتهم المغلقة، بل أعلنوها في كهوفهم العجيبة، ومغاراتهم المريبة، حتى إنك تلحظ في طعوناتهم أنها يرقق بعضها بعضاً، فكلما ظهر ظعن تقول «هذا مهلكه»، ثم ينكشف حتى يأتي ظعن أكبر منه فيرققه.

وقد وصف حالهم شيخنا أزهري سنيقرة - حفظه الله تعالى - في حوار الهادي مع الدكتور عبد الخالق ماضي - عفا الله عنه - في كلمات يسيرة تحمل في طياتها معان كبيرة، فقال: « ولأن جوهر الخلاف بيننا هو مسائل منهجية معلومة، كان بإمكاننا أن نعالجها في حينها، قبل أن تتقدم، وقبل أن يدخل بيننا أولئك الغلمان الذين استنسروا علينا، ورفعوا عقيرتهم على كبارنا، وزعموا أنهم يريدون خيراً، والله ما حققوه ولا وصلوا إليه، لا بأقوالهم، ولا بأفعالهم، فهذا إذا هو جوهر الخلاف بيننا.»

وحيال هذا التسلط المشين، تجد بعض ضعفاء القلوب، ممن جعلوا قلوبهم للشبهات كالإسفنجة، يوردون بعض الإيرادات الواهية التي يمكن إجمال بعضها في ما يلي:

أولاً: قد يقول قائلهم: « أن المشايخ لم يحسنوا تربية تلاميذهم»، والرد عليهم كما قال شيخ مشايخنا العلامة مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله: « وإذا تسلط عليهم بعض طلبتهم، فليس معناه أنهم لا يحسنون التربية، فإن الله سبحانه

وتعالى يقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

﴿٥٦﴾ (القصص: ٥٦)، ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ﴿٢٧٢﴾ (البقرة: ٢٧٢)، ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا

تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ إِذَا وَتُوا مُدْرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِي عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِعَايَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ الروم: (٥٢ - ٥٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا

مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾

(محمد: ١٦). اهـ (قع المعاند، ص 131).

والذي -تتمناه ونرجوه من الله وندعوه به- أن يكون هذا التسلط فسادا في التصور، وغشاوة في العين تزول عما قريب بإذن الله، وأخشى ما نخشاه - أعاذنا الله وإياهم منه- أن يكون التسلط فسادا في الفطرة، لم تقو التربية على إصلاحه، كما سنذكره أدناه في قصة العلامة الإبراهيمي -رحمه الله- مع جراء السوء الذين رتبهم جمعية العلماء المسلمين.

ثانياً: قد يقول بعضهم: « أن المشايخ يتناقضون في أحكامهم على الرجال، فبالأمس يركونهم ويثنون عليهم، ويقدمونهم في المحافل الدينية، ويصدرونهم في الدورات العلمية، واليوم يجرحونهم ويطعنون فيهم... ».

فنتقول: أن مشايخنا -حفظهم الله- يسيرون على سنن أهل الحديث في الكلام على الرجال، ولا يجيدون عن ذلك قيد أنملة، وإنما كانوا يثنون على هؤلاء بناء على ظاهرهم وحسنا للظن بهم، وتشجيعا لهم على الرقي في درجات العلم، وغير ذلك من الأسباب التي تدفع الشيخ للثناء على تلميذه، فإذا ظهر منهم ما يقتضي جرهم تكلموا فيهم بما يناسب مخالفتهم. قال الشيخ الدكتور عبدالمجيد جمعة -حفظه الله- في رسالته إلى خالد حمودة -عفا الله عنه وورده إلى جادة الصواب وبصره بالحق المبين- ومن على شاكلته: « فسبحان الذي جعل الفتن تصفي وتغربل، والمرء في خضمتها يكبر ويحوقل، كنا نحسن الظن بناس (بناء على الأصل)، وتتفاقل وتتجاهل، ونعلم ونحلم، ونتهم أسماعنا ونكذب أبصارنا، لكن الواقع يأتي إلا أن يتهمنا، ويسيء الظن بنا، فيفصح ويفضح، ويميط عن هذه الأبصار غشاوتها، وعن الأسماع صممها» اهـ.

قال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي - حفظه الله - في (فتاوى فضيلة الشيخ ربيع، 251/1):
 «فاليوم يعني قد يأتي إنسان يدعي أنه طلب العلم ويتظاهر بالدين والنسك والأخلاق الطيبة ويجلس ويمكث عندك أياماً فتبني على الظاهر، أنا والله زكيت أناساً في هذا العام، والله لازموني وما شاء الله تنسك وكذا وكذا وكذا..... ثم ظهر لي جرحهم، أنا إذا صلي معي وزكي وذكر الله وسافر معي واح، أشهد بما رأيت، ولا أزكي على الله أحداً، لكن يأتي إنسان آخر عرفه أكثر مني، واكتشف عليه أخطاء واكتشف عليه أشياء تقدر في عدالته، فيجرحه بعلم ويبرهن على جرحه بالأدلة ويفسر جرحه، فيقدم جرحه على تعديلي، وأنا استسلمت، قدم الأدلة على جرح هذا الإنسان، في الواقع الحق معه» اهـ.

ولا يغتر صاحب الباطل المجروح بتزكية من زكاه بحسن الظن، وبناء على الظاهر، ولا يسعى لذلك بالطرق المأكورة، والأساليب الملتوية الفاجرة، فإن المرء يزكيه عمله، ويشهد له سيره ومواقفه.

قال العلامة عبيد الجباري - حفظه الله وتمعنه بالصحة والعافية -: «حياتي العلمية والعملية تزيد على خمسين سنة وما أعهد أني يوماً من الأيام سألت أحداً أن يزكيني» اهـ (من تغريدة للأخ رائد آل طاهر - وفقه الله -).

وعن عبدالله بن المعتز قال: سمعت المنتصر يقول: «والله! ما عزَّ ذو باطلٍ قطُّ؛ ولو طلع القمر من جبينه، ولا ذل ذو حقٍّ قطُّ؛ ولو اتفق العالم عليه». اهـ (كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من ألسن الناس للعجلوني، (207/2)).

ثم ليعلم هؤلاء الذين أشربوا الشبهات، وأكثروا من الخصومات، فابتلوا بكثرة التنقلات، أن تسلط الصغار على الكبار ليس بدعا من القول، بل هو متجذر في الزمان القديم الغابر، ومستمر ومتجدد إلى العصر الحديث الحاضر، و«لكل قوم وارث» كما يقولون، وسأسوق في هذا المقال جملة من أخبارهم لعل قومي يعتبرون، وبيانا لذلك أقول في:

3/ المبحث الثاني: تسلط الصغار على الكبار في الزمان القديم الغابر:

اعلم أخي الحبيب، أن أصل تسلط الصغار على الكبار ما جاء في حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -، ولبيان ما ورد في ذلك «قال الإمام أحمد: ثنا هاشم، ثنا سليمان، يعني ابن المغيرة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: «كان منّا رجلٌ من بني النجار قد قرأ "البقرة" و "آل عمران"، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب. قال: فرقوه وقالوا: هذا كان يكتب لمحمد. وأعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفرُوا له فواروه، فأصبحت الأرض قد تبدت على وجهها، ثم عادوا فحفرُوا له وواروه، فأصبحت الأرض قد تبدت على وجهها، فتركوهُ مذبذباً» ورواه مسلم عن محمد بن رافع، عن أبي النضر هاشم بن القاسم به.

طريق أخرى عن أنس: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، ثنا حميد عن أنس، «أن رجلاً كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان قرأ "البقرة" و "آل عمران"، وكان الرجل إذا قرأ "البقرة" و "آل عمران" عزَّ فينا، يعني عظم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملئ عليه عقوراً رحيماً. فيكتب: علياً حكيماً، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «أكتب كذا وكذا، أكتب كيف شئت». ويملئ عليه: علياً حكيماً. فيقول: أكتب: سميماً بصيراً؟ فيقول: «أكتب كيف شئت». قال: فارتد ذلك الرجل عن الإسلام، فلحق بالمشركين، وقال: أنا أعلمكم بمحمد، وإن كنت لأكتب إلا

مَا شِئْتُ. فَمَاتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَقْبَلُهُ ". قَالَ أَنَسٌ: فَحَدَّثَنِي أَبُو طَلْحَةَ أَنَّه أُنِيَ الْأَرْضَ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَوَجَدَهُ مَنبُودًا، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: مَا شَأْنُ هَذَا الرَّجُلِ؟ قَالُوا: قَدْ دَفَنَاهُ مَرَارًا فَلَمْ تَقْبَلْهُ الْأَرْضُ » وَهَذَا عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخْرِجُوهُ. « اهـ (البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله، (88/9) طبعة دار هجر).

قال الساعاتي في (بلوغ الأمان، 31/18): « إنما قال له النبي ﷺ: « أكتب كيف شئت »، ولم يزره عن فعله لكونه علم إما بطريق الوحي أو بطريق الإلهام أن هذا الرجل خبيث النية، وأن الله سيعاقبه عقابا صارما وينكل به، وقد كان ذلك فلما هلك لم تقبله الأرض أن يدفن فيها فبذته مرارا حتى ترك منبوزا على وجه الأرض ليعتبر به غيره. ».

ويتفرع من هذا الأصل الذي جاء في حديث أنس رضي الله عنه كثير من الفروع؛ فمنها ما حكاه ابن كثير رحمه الله في (البداية والنهاية (298/18)، تحقيق التركي) عما جرى بين كمال الدين ابن الزمكاني (ت 727هـ) وابن تيمية

(ت 428هـ) -رحمهما الله-، حيث قال تحت فصل «ذكر وفاة الشيخ تقي الدين ابن تيمية»:

«وَوُجِدَتْ بِحِطِّ ابْنِ الزُّمْلَكَانِيِّ أَنَّهُ اجْتَمَعَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْإِجْتِهَادِ عَلَى وَجْهِهَا، وَأَنَّ لَهُ الْيَدَ الطَّوْلَى فِي حُسْنِ التَّصْنِيفِ، وَجَوْدَةِ الْعِبَارَةِ وَالرِّثْبِ، وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّنْبِيهِ، وَكَتَبَ عَلَى مُصَنَّفٍ لَهُ هَذِهِ الْأَيَّاتُ:

مَاذَا يَثْوُلُ الْوَاصِفُونَ لَهُ ... وَصَفَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْحَضَرِ

هُوَ حُجَّةٌ لِلَّهِ قَاهِرَةٌ ... هُوَ بَيْنَنَا أُعْجُوبَةُ الدَّهْرِ

هُوَ آيَةٌ فِي الْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ ... أَنْوَارُهَا أَرْبَتْ عَلَى النَّجْرِ

وهذا الثناء عليه وكان عمره نحو الثلاثين سنة، وكان بينه وبينه مودة وصحبة من الصغر، وسماع الحديث والطلب من نحو خمسين سنة، وله فضائل كثيرة، وأسماء مصنفاته وسيرته وما جرى بينه وبين الفقهاء والدولة، وحبسه مرات، وأحواله، لا يتحمل ذكر جميعها هذا الموضع في هذا الكتاب.».

ثم بعد كل هذا الإعجاب والمدح بإطناب، ذكر ابن كثير -رحمه الله- في قصة وفاته كيف تغير على شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وحاول إيدائه فقال: « ثُمَّ طَلِبَ إِلَى التَّيَّارِ الْبَصْرِيَّةِ لِيَتَوَلَّى الشَّامِيَّةَ دَارَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَعَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَبْلَ وُضُولِهِ إِلَيْهَا، فَمَرَضَ وَهُوَ سَائِرٌ عَلَى الْبَرِيدِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ عَقِبَ الْمَرَضَ بِجُرْأَنِ الْجِمَامِ، فَفَقَّصَهُ هَازِمُ اللَّدَّاتِ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، «وَالْأَعْمَالِ بِالْيَتِيمَاتِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصَيِّبُهَا أَوْ امْرَأَةً يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» وَكَانَ مِنْ نِيَّتِهِ الْحَيْثِيَّةُ إِذَا رَجَعَ إِلَى الشَّامِ مُتَوَلِّيًا أَنْ يُؤْذِيَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ، فَدَعَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَتَلَعَّ أَمَلَهُ وَمُرَادَهُ، فَتَوَفَّى فِي سَحْرِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ سَادِسَ عَشَرَ شَهْرٍ رَمَضَانَ بِمَدِينَةِ بَلْبَيْسَ، وَحُمِلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ، وَدُفِنَ بِالْقَرَّافَةِ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ جِوَارَ قُبَّةِ الشَّافِعِيِّ، تَعَمَّدَهَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ.».

ونبتى دائما مع المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وهذه المرة مع أبي حيان المفسر (ت 745هـ)، حيث ساق الألويسي -رحمه الله- قصته في (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ص 30) فقال: «ونقل الإمام العسقلاني أيضاً عن الحافظ الذهبي أنه قال: حضر عند شيخنا أبو حيان المفسر فقال: ما رأيت عيناى مثل هذا الرجل! ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة، وأنشده إياها وهي: [بسيط]

لما أتانا تقي الدين لاح لنا ::: داع إلى الله فردّ ما له وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ::: خير البرية نور دونه القمر
حبر تسريل منه دهره حبراً ::: بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ::: مقام سيد تيم إذ مضت مضر
وأظهر الحق إذ آثاره اندرست ::: وأحمد الشر إذ طارت له شرر
يا من يحدث عن علم الكتاب أصحّ ::: هذا الإمام الذي قد كان ينتظر

يشير بهذا أنه المجدد - وقد صرح بذلك أيضاً العباد الواسطي - ثم دار بينهما كلام فجری ذكر سيويوه، فأعظ الشيخ ابن تيمية القول في سيويوه، فناظره أبو حيان بسببه، ثم عاد ذاماً له، وصير ذلك ذنباً لا يغتفر. ويقال: إن ابن تيمية قال له: ما كان سيويوه نبي النحو ولا معصوماً، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت. فكان ذلك سبب مقاطعته إياه، وذكره في تفسيره (البحر) بكل سوء، وكذا في مختصره (النهر) «اهـ.

وقد يكون ذمّ أبي حيان لابن تيمية الذي ذكره الألويسي آفأ، هو ما ذكره الزبيدي في (شرح عقائد القواعد من كتاب إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ص 213):
«قال التقي السبكي: وكتاب العرش من أقبح كتبه-يقصد أحمد بن تيمية-، ولما وقف عليه الشيخ أبو حيان ما زال يلعنه حتى مات بعد أن كان يعظمه».

ونعرج الآن على تلميذ ابن تيمية الحافظ الذهبي (ت 748 هـ) -رحمها الله- حين تناول عليه تلميذه تاج الدين السبكي (ت 771 هـ) بعد وفاته، فقد كان يثني عليه ويمدحه ويحله في حياته وعند وفاته، ومن ذلك ما قاله في (طبقات الشافعية 109/9):

«وقد كنت لما توفي شيخنا رثيته بقصيدة مطلعها

من للحدِيث وللسارين في الطلّب ::: من بعد موت الإمام الحافظ الدّهبيّ
من للرواية للأخبار ينشرها ::: بين البرية من عجم ومن عرب
من للدراية والآثار يحفظها ::: بالتقد من وضع أهل الغي والكذب
من للصناعة يندري حل معضلها ::: حتّى يريك جلاء الشك والريب
من للجماعة أهل العلم تلبسهم ::: أعلامه الغر من أبرادها القشب
من للتخارج يبديها ويدخل في ::: أبوابها فاتحا للمقفل الأشب
من في القراءت بين الناس نافعهم ::: وعاصم ركها في المحفل اللجب
من للخطابة لما لاح يرفل في ::: ثوب السواد كبدر لاح في سعب

منها:

وإن تغب ذات شمس الدين لا عجب ::: فأني شمس رأيناها ولم تغب

هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي رَوَتْ رِوَايَتَهُ :::: وَطَبَقَ الْأَرْضَ مِنْ طُلَابِهِ النُّجَبِ
مَهْذَبِ الْقَوْلِ لَاعِيٍ وَجَلِجَةً :::: مُثَبَّتِ الثَّقُلَ سَامِي الْقَضْدِ وَالْحَسْبِ
تَبَّتْ صَدُوقَ خَيْرِ حَافِظٍ يَقِظَ :::: فِي الثَّقُلِ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
كَالزَّهْرِ فِي حَسْبِ وَالزَّهْرِ فِي نَسَبِ :::: وَالنَّهْرِ فِي حَدْبِ وَالدهْرِ فِي رَتَبِ
وَهِيَ طَوِيلَةٌ فَلْيَقْعِ الْإِفْتِصَارَ عَلَى مَا أوردناه».

ثم بعد هذا الثناء العطر، والمدح المليح، تجده يطعن في شيخه ويقع فيه، فيقول في (طبقات الشافعية الكبرى، 13/2):

«وأمثلة هذا تكثر-يعني الأمثلة التي تبين أن جرح العلماء بعضهم لبعض مردود-، وهذا شيخنا الذهبي رحمه الله من هذا القبيل، له علم وديانة، وعنده على أهل السنة تحمل مفرط؛ فلا يجوز أن يعتمد عليه. ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلي العلابي -رحمه الله- ما نصه: «الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله الناس، ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه، وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم واحداً منهم يطنب في وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويبالغ في وصفه ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن، وإذا ذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما، لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول من طعن فيه، ويعيد ذلك ويديه ويعتقده ديناً وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطالفة فلا يستوعبها، وإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله في أهل عصرنا إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته: «والله يصلحه» ونحو ذلك وسببه المخالفة في العقائد». اهـ.

والحال في حق شيخنا الذهبي أزيد مما وصف، وهو شيخنا ومعلمنا غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه، وأنا أخشى عليه يوم القيامة من غالب علماء المسلمين وأئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية، فإن غالبيتهم أشاعرة وهو إذا وقع بأشعري لا يفتي ولا يدر، والذي اعتقده أنهم خصاؤه يوم القيامة عند من لعل أذناهم عنده أوجه منه؛ قاله المسئول أن يخفف عنه، وأن يلهمهم العفو عنه وأن يشفعهم فيه، والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه، وعدم اعتبار قوله، ولم يكن يستجري أن يظهر كنبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنه أنه لا يثقل عنه ما يعاب عليه».

إلى أن قال في كلام طويل: «قلينظر كلامه من شاء، ثم يبصر هل الرجل متحر عند غضبه أو غير متحر، وأعني بغضبه وقت ترجمته لواحد من علماء المذاهب الثلاثة المشهورين من الحنيفة والمالكية والشافعية، فإني أعتقد أن الرجل كان إذا مد القلم لترجمة أحدهم غضب غضباً مفرطاً، ثم قرطم الكلام ومزقه وفعل من التعصب مالا يخفى على ذي بصيرة، ثم هو مع ذلك غير خبير بمدلولات الألفاظ كما ينبغي، فربما ذكر لفظة من الهمز لو عقل معناها لما نطق بها، ودأباً أتعب من ذكره الإمام فخر الدين الرازي في كتاب الميزان في الضعفاء، وكذلك السيف الأيدي وأقول: يا الله العجب هذان لا رواية لهما ولا جرحاً أحدهم ولا سمع من أحد أنه ضعفها فيما ينقلانه من علومهما فأني مذخر لهما في هذا الكتاب؛ ثم إننا لم نسمع أحداً يستعي الإمام فخر الدين بالفخر بل إما الإمام وإما ابن الخطيب، وإذا ترجم كان في المحمدين فجعله في حرف الفاء وسماه الفخر، ثم حلف في آخر الكتاب أنه لم يعتمد فيه هوى نفسه، فأني هوى نفس أعظم من هذا؛ فأما

أن يكون وري في يمينه، أو استثنى غير الرواة، فيقال له قلم ذكرت غيرهم، وأما أن يكون اعتقد أن هذا ليس هوى نفس، وإذا وصل إلى هذا الحد والعياذ بالله فهو مطبوع على قلبه». اهـ.

وقد أشار السخاوي -رحمه الله- إلى قول السبكي هذا في معرض ذكره لأصناف ناقدى التاريخ في (الإعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ، ص 87) فقال: « ومنهم من نسب بعضهم إلى التقصير والتعصب، حيث لم يستوعب القول فبين هو منحرف عنهم، بل يحذف كثيرا مما يراه من ثناء الناس عليهم، ويستوفي الكلام فبين عداهم غير مقتصر عليهم».

ثم رد عليه بأقوى العبارات فقال ص 94: « أما الخامس فالذي نسب الذهبي لذلك هو تلميذه التاج السبكي، وهو على تقدير تسليمه إنما هو في أفراد مما وقع التاج في أقبح منه، حيث قال فيما قرأته بخطه تجاه ترجمة سلامه الصياد المنبجي الزائد ما نصه: « يا مسلم استحي من الله، كم تجازف، وكم تضع من أهل السنة الذين هم الأشعرية، ومتى كانت الحنابلة، وهل ارتفع للحنابلة قط رأس» وهذا من أعجب العجائب، وأصحب للتعصب، بل أبلغ في خطأ الخطاب، ولذا كتب تحت خطه بعد مدة قاضي عصرنا وشيخ المذهب العز الكناني ما نصه: « وكذا والله ما ارتفع للمعطلة رأس»، ثم وصف التاج بقوله: « هو رجل قليل الأدب، عديم الإنصاف، جاهل بأهل السنة ورتبهم، يدلك على ذلك كلامه».

قال الشوكاني رحمه الله في (البدر الطالع، 111/2) ردا على قول السبكي هذا:

«وقد أكثر التشنيع على تلميذه السبكي وذكر في مواضع من طبقاته للشافعية ولم يأت بطائل بل غاية ما قاله « إنه كان إذا تزجم الظاهرية والحنابلة أطال في تفریطهم وإذا تزجم غيرهم من شافعي أو حنفي لم يستوف ما يستحقه»، وعندى أن هذا كما قال الأول (وتلك شكاة ظاهر عنك عارها)، فإن الرجل قد ملح حبا للحدِيث وغلِبَ عليه فَصَارَ النَّاسُ عندهم أهله وأكثَرُ محققهم وأكبرهم هم من كان يُطِيلُ الثناء عَلَيْهِ إلا من غلبَ عَلَيْهِ التَّقْلِيدُ وقطع عمره في اشتغال بما لا يُفيد. ومن جملة ما قاله السبكي في صاحب الترجمة «أنه كان إذا أخذ القلم غضب حتى لا يدرى مايقول»، وهذا باطل فمصنفاته تشهد بخلاف هذه المقالة وغالبها الإنصاف والذب عن الأفاضل وإذا جرى قلمه بالوقية في أحد لم يكن من معاصريه فهو إنما روى ذلك عن غيره، وإن كان من معاصريه فالغالب أنه لا يفعل ذلك إلا مع من يستحقه، وإن وقع ما يخالف ذلك نادرا فهذا شأن البشر وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المغضوم، والأهوية تختلف والمقاصد تتباين».

وقال يوسف بن عبد الهادي -رحمه الله- في (معجم الشافعية الورقة 48/47):

«وكلامه هذا في حق الذهبي غير مقبول؛ فإن الذهبي كان أجل من أن يقول ما لاحقيقة له...والانكار عليه أشد من الانكار على الذهبي، لا سيما وهو شيخه وأستاذه؛ فما كان ينبغي له أن يفرط فيه هذا الإفراط». اهـ. (مقدمة سير أعلام النبلاء 130/1).

ثم تسير بنا عجلة الزمن، فتحط رحالها في أرض «الين»، حيث معقل الشوكاني (ت 1250 هـ) -رحمه الله- الذي ثار عليه طلبته بسبب تأليفه كتاب «تنبيه الغبي عن مذهب أهل بيت النبي في أصحاب النبي».

قال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي -رحمه الله-: « والشوكاني -رحمه الله- عند أن كتب كتابه القيم «تنبيه الغبي عن مذهب أهل بيت النبي في أصحاب النبي»، صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولم أطلع عليه، إلا أنني أرى نقولا لأهل العلم عنه.

قامت قيامة الشيعة، وكان منهم بعض طلبته، فبعض الأشياء تبعث وتظهر الأعداء الذين يكونون مهندسين في الحلقة وفي المجتمع، فإذا حانت الفرصة رأيتهم ينتكرون، فثار عليه كثير من طلبته كما ذكر هذا في كتابه «البدر الطالع»، وأفادني بعض الإخوة بأنه ذكر هذا أيضا في «أدب الطلب». 1 هـ (قمع المعاند وزجر الحاقد الحاسد، ص 135).

4/ المبحث الثالث: تسلط الصغار على الكبار في العصر الحديث الحاضر:

أما في العصر الحديث فلهما بنا قرأ للإبراهيمي (ت 1385 هـ) -رحمه الله- وهو يذكر مثالا في ذلك في العدد رقم 152 من جريدة البصائر سنة 1951 في موضوع بعنوان: « أين موقع بسكرة من أفريقيا الشمالية»، حيث حكى كيف كانت حكومة الجزائر الإستعمارية تحارب جمعية العلماء بالكيد المغلف بالقانون، وبالقانون المبطن بالكيد، وذلك بإحداث رهط تنتدبهم لمنافسة جمعية العلماء في أنواع عملها، وقد رفعتهم جميعا إلى أسفل، ومن هؤلاء الرهط مخلوق في بسكرة مهمته اختراع الإفتراءات واختلاق التهم ضد الجمعية، يتلقى الأوامر في ذلك من مخلوق تونس، الذي بدوره ينشرها في جريدة « أفريقيا الشمالية»، بأقلام تنسب لجزءٍ سوء ربتهم جمعية العلماء وعلمتهم وأنفقت عليهم، وفي ذلك يقول رحمه الله: « وما هذه الأسماء التي تنسب إليها المقالات؟، إن بعضها خيالي، استعير للتستر، وبعضها جزاء السوء الذين ربتهم جمعية العلماء وعلمتهم وأنفقت عليهم، ولولاها لما كانوا، ولا عرفوا القلم والكتابة، ولكنهم كفروا نعمتها، وعقوا أبوتها، لفساد في الفطرة، لا تقوى التربية على إصلاحه، وهي تحمد الله على أنه ليس كل أبنائها (أبا قصة) «اهـ.

وقد كان للعلامة مقبل بن هادي الوادعي (ت 1422) -رحمه الله- نصيب كبير من تسلط الطلاب عليه⁽²⁾، حيث جعل في كتابه المانع « قمع المعاند وزجر الحاقد الحاسد» مقالا بعنوان: « الإشفاق على الطالب العاق» كما تقدم، فما قصته مع الطالب العاق يا ترى؟

كان عبدالله بن غالب الحميري -عفا الله عنه- صاحب ذهن وقاد، وقرينة متوهجة، فيسر الله له الدراسة على الشيخ مقبل -رحمه الله- الذي كان يطلب منه أن يأتي ببعض الشعر في الثناء على بعض الناس، ويطلب منه أيضا تأليف كتاب اسمه «تاريخ اليمن» لأن له أسلوبا طيبا، وكان عبدالله يثني على شيخه ثناء عجيبا، حتى جره ذلك إلى الغلو فيه، ومن ثنائه عليه قوله:

إلى فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي -حفظه الله-

نظم الطالب: أبي محمد عبدالله بن غالب الحميري العديني:

يا ناهلاً من علوم الشرع مستبقاً ::: وناهياً لكتاب الله معتقياً

وناجماً من لواء الشام في يمن ::: قد أحرز السبق في ذا العصر وانطلقاً

وصاول الرفض حتى داس نخلته ::: وألبس الرفض ثوباً دامياً خلقاً
بنى بدماج داراً للعلوم وقد ::: أضحى به العلم في الآفاق منبتاً
لم يجعل الدجل بين الناس ديدنه ::: بل كان خير صدوق عفة وتقى
فصار ملء عيون الناس واندحرت ::: عنه الوشاة وكان الحق ما نطقاً
حييت من علم فذِ سما شرفاً ::: واستجمع المجد من أطرافه ورقاً
تالله ما عرفت همدان فضلكم ::: وأنت خير بكيل^(١) كلهم خلقاً
سموت بالعلم والإخلاص في بلد ::: ما كان إلا لأهل الجهل منطلقاً
وجئت قومك في عصرك قد انغمسوا ::: في لجة الرفض حتى صار معتنقاً
قد قمت لله حقاً غير مبتغى ::: مقولة الناس قام الشيخ وانطلقاً
مبلغاً لكلام الله لا ولها ::: بالجاء أو طمعا بالمال مرتزقاً
فمنبر الوعظ لا يرضى بمرتزق ::: يرقى عليه خطيباً ماهراً لبقاً
مهما تسلق فيه الأدعياء فهم ::: عما قريب سيلقوا مركباً زلقاً
لبست ثوباً عفيفاً لم يدنس من ::: جمع الصلاة فأضحى طيباً عباقراً
وجدت بالمال بذلاً غير محتكر ::: له عن القوم كي تُبنى به الشُّقفا
فبيتك الرث معلوم بحطته ::: لكل محتكر للمال قد خلقاً
وعزة النفس تأبى أن تكون كمن ::: ينافس الناس في بنيانهم حمقاً
شغفت بالعلم فاخترت العكوف له ::: فصار دارك للتحقيق منطلقاً
وجاءك القوم من أقصى الديار فما ::: ضاق الفؤاد بهم ذرعاً ولا حنقاً
مازلت توليهم الإحسان مبتغياً ::: ماثوبة الله في الخيرات مستبقاً
قد صار زهدك عنواناً عرفت به ::: وصار جودك في أوساطنا خلقاً
يا أيها الشيخ هذي نقحة بدرت ::: ما صغتها رغبة في المدح أو ملقاً
إني توخيت فيها الحق معتذراً ::: إذا نبا القلم المجهود وانزلقاً

مثنوية الله خير من مدائننا ::: وخشية الله أبهى حلة وثقا

وعزة النفس تكسو المرء مكرمة ::: وتلبس الشخص ثوبا ناصعا ألقا

لم تخش في الله جباراً لسلطته ::: إذا تعد حدود الله أو أبقا

ولا أقتت بنا الدنيا إذا هدرت ::: حقوق نفسك شأن البعض إن حنقا

وما عرفت إلا زاهداً ورعاً ::: وما رأيتك إلا ضاحكاً طلقاً

أعدت للعلم صرحاً غير منصدع ::: كما تصدع صرح الجهل وانحرقا

فسدد السهم في نحر العدو كما ::: ضربت بالسيف وارم الشيعة الحمقا. اهـ

قال الشيخ مقبل بن هادي -رحمه الله- معلقاً على هذه القصيدة: «فيها من الغلو ما فيها، وأنا لا أوافق على ما فيها»

(قمع المعاند ص 141).

ثم ما لبث الأبعد حتى لبس عليه محمد المهدي -تلميذ الوادعي سابقاً- ، ومسحه أصحاب سلفية عبدالرحمن عبدالخالق ، فصار يظن في شيخه ويتهمه بالحسد، ويتملق لأصحاب الفضيلة من علماء نجد، وفي ذلك يقول عنه الشيخ مقبل -رحمه الله-: «وأنا في هذه الليلة ليس من باب الرد على عبدالله بن غالب فإنني عزمت على أن لا أرد على أحد، إن اضطرت ابتدأت، في شيء آخر حتى أشغل الخصم، ولا أرد عليه، فليس من باب الرد على عبدالله بن غالب، وذنوبي أكثر، ولكن من باب تحذير أفاضل العلماء منه ومن أمثاله، وإلا فالرد ينبغي أن يتشاغل به، الناس يعلمون من أحق بقوله: «من جهل شيئاً عاداه»، الناس يعلمون من أحق بقوله ممتثلاً ومستشهداً بالآية: « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعمله»، الناس يعلمون من أحق بقوله:

أمور تضحك السفهاء منها ::: ويكي من عواقبها الحليم

... وأيضا استشهاده بقوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ::: طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار في جزل الغضا ::: ما كان يعرف طيب نشر العود

بالله يا عبدالله بن غالب أنحسك على النوم تحت البطانية وأنت في المكتبة، الناس يحققون وأنت تأخذ البطانية وتلتحف بها، أنحسك يا بني على ضياع الوقت من دماغ إلى صنعاء إلى تعز إلى جدة إلى القصيم إلى الرياض إلى الأحساء إلى كثير من البلاد، هذا أمر يا بني لا تحسد عليه، على أي شيء نحسدك وفقنا الله وإياك، فكن متأدباً واعلم

ما تقول والحمد لله الشريط يعتبر وثيقة، وكما قلنا سابقا: إننا ذكرنا هذا الشريط من أجل النصح لأصحاب الفضيلة العلماء أن يجندوا، فالرجل متملق غاية التملق، وسأقرأ عليكم براهين من كلامه.

عبدالله بن غالب عند أن كان صغيرا كان لعابا وتحملناه لذكاه، فلم نستطع ثم طردناه، وبعد أن طردناه مكث ما شاء الله ورأيت قصيدة له في الرد على الشيعة وقلت: مثل هذا ينبغي أن يفض عنه الطرف، ارجع يا عبدالله بن غالب، ورجع عبدالله بن غالب، وذكر أنه ذهب إلى نجد وإلى القصيم، وأنه لم يجد مثل هذه المدرسة وإن كان فيهم من هو أعلم من الشيخ.

ثم خرجت رحلة مكثت فيها قدر شهر، ما رجعت إلا والإخوة قد انقسموا إلى حزبين، عبدالله مع طائفة، وطائفة أخرى، فبقيت قدر شهر لعلني أعالج الموضوع ولا نحتاج إلى طرد، ثم اضطررنا إلى الطرد مرة أخرى، بعد أن طردته أقرأ عليكم القصيدة التي أرسلها إلي، وكثيرا ما أقرؤها وأبكي⁽⁴⁾، أسأل الله أن يهديك يا عبدالله بن غالب يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

أطغى الزمان عليك أم أطغاك ::: أم غرك التيسير أم أغراك
أم كدر الجلساء صفوك أم نبا ::: سهم المسورة فاستثار علاك
أم طااشت الآراء عندك دوغما ::: فهم الحقيقة أم نسيت عداك
فخرجت من دار الحديث مغاضبا ::: وطردت كل مخالف لهواك
أقصرت ودك والمحبة للذي ::: رفض الأخوة واستمال رضاك
ورفضت من ترك البلاد وجاء من ::: أرض الجزائر لا يروم سواك
وطردت مكتبب الفؤاد لفرقة ::: ويئن من ألم لفرط صباك
لم يرض فعلك والذي رفع السما ::: إلا الذي كان دعاك
هل جاء في السفر المنزل طردهم ::: أم سنة المختار جاء هناك
أم قمت منتصرا لرأيك بالذي ::: ما كان يفني عنك لو أغناك
ما كان رأي العبد لي مقدما ::: والله عن طرد العباد هناك
كلا ولا عبدالكريم وقد أتى ::: من لؤمه ما منه قد أزراك
قل لي بريك مالذي أحرزته ::: أمن بطرد المؤمنين أراك
هل جاء نصر الدين بعده أما سما ::: صرح الأخوة أم أتاك مناك
قد ساء فعلك كل حر ينتمي ::: للسنة الغراء ما أدراك
فالكل يسأل مالذي أزرى به ::: عجبا له هل صدق الأفاك
أم غره سعي الوشاة وكيف لا ::: جمع الخصوم وجانب الإمساك

إلى أن قال:

يا شيخنا رفقا بنا فعداؤنا ::: قد طوقونا من هنا وهناك
ويسرهم أن التقاطع بيننا ::: يتي يسلوا صارما فتاكا
فاحفظ لنا جبل الأخوة واسلكن ::: وسط الطريق ووجهن نداك
واخلص لنا في النصيح لا يك ::: منك اليراع ولا تسلط فاك
الله يا شيخ الحديث مذكرا ::: بعظاته فالزم أخاك أخاك
وعليك من نقحات ربك رحمة ::: وتحية من قدسه تغشاك
وعلى جميع الناقلين مسلما ::: واغفر إلهي لهالك لولاك

مقطوعة شعرية لأبي محمد الحميري (25 شعبان 1408 هـ، الموافق لـ: 12/04/1988) .«.

ونختم أمثلة تسلط الصغار على الكبار بمثلين عصريين تسلطا على عالمين مجددين كبيرين، دب الخوف في نفوسهما، واستولى الذعر على قلبيهما في حياة شيخيهما، فلما قبضا تطاولا عليهما قائلين بلسان الحال: « ذهب زمن الخوف».

قال الشيخ محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله تعالى- في شريط بعنوان: «القبلة د18»: «وأنا أقول: اثنان كانا يخافان من اثنين في بلدين اثنين: شقرة في الأردن من «الألباني» يخاف منه ويستفيد بالتملق إليه ومقاربتة للشيخ ناصر في حياته رحمة الله عليه، فلما مات الشيخ ناصر رأيت شقرة ماذا عمل!»
و«مقبل» في اليمن كان يخشاه أبو الحسن وأظن لو أن «أبا عبد الرحمان الشيخ مقبل -رحمه الله-» أدرك فتنته هذه لما احتجنا فيها إلى كلام ولأطفالها بأمر الله جل وعلا بكلمة واحدة؛ فكم قد قمع الله به من أهل الأهواء في تلك البلاد وكم قد نفع الله به، وقد حدثني في ذلك الأخ علي العقيقي وكلكم تعرفونه؛ حدثني بما سمع من الشيخ «مقبل» لما كان عندكم هنا يعالج واتصلوا به من اليمن يشتكون عليه صنيع أبي الحسن، فقال لهم: «دعوا عنكم أبا الحسن فوالله لو اشتد ساعده ما بالى بأحد ولو خالف أهل السنة جميعا، فدعوه عنكم، فلن يضر الدعوة ولن يضر الله شيئا»، وفعلا كأنه ظن أنه بوفاة مقبل قد اشتد ساعده! ولكن ثم «مقبلون غير مقبل»؛ فإن ذهب «مقبل» فثم من يخلفه، لا في اليمن فحسب ولكن في بلاد الإسلام كلها، فصدق والله -رحمه الله-.

وفي الختام أحببت أن أنقل نصيحة مؤثرة يهتز لها الفؤاد، ويقبل عليها العبد الصادق المنقاد، خطها يراع الماوردي -رحمه الله-، حيث قال في بيان حقوق المعلم: « وَلَا يُظْهِرُ لَهُ الْإِسْتِكْفَاءَ مِنْهُ وَالِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ كَثْرًا لِنِعْمَتِهِ، وَاسْتِحْقَاقًا بِحَقِّهِ، وَرُبَّمَا وَجَدَ بَعْضَ الْمُتَعَلِّمِينَ قُوَّةً فِي نَفْسِهِ لِجُودَةِ ذَكَائِهِ وَجِدَّةِ حَاطِرِهِ، فَصَدَّ مَنْ يَعْلَمُهُ بِالِاعْتِنَاتِ لَهُ وَالِاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ إِزْرَاءً بِهِ وَتَبْكِيئًا لَهُ، فَيَكُونُ كَمَنْ تَقَدَّمَ فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ لِأَبِي الْبَطْحَاءِ:

أَعْلَمُهُ الرِّمَاطَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَهَذِهِ مِنْ مَصَائِبِ الْعُلَمَاءِ وَانْعِكَاسِ حُطُوطِهِمْ أَنْ يَصِيرُوا عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُوهُ مُسْتَجْهَلِينَ، وَعِنْدَ مَنْ قَدَّمُوهُ مُسْتَرْدَلِينَ.
وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ:

وَإِنَّ عَنَاءَ أَنْ تُعَلِّمَ جَاهِلًا ... فَيُخَسِبُ أَهْلًا أَنَّهُ مِنْكَ أَعْلَمُ
مَتَى يَبْلُغُ الْبُتَيْنَانِ يَوْمًا تَمَامَهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَعَيْرُكَ يَهْدِمُ
مَتَى يَبْتَهِي عَنْ سَيِّئٍ مَنْ أَتَى بِهِ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَتَدَّمُ
وَقَدْ رَجَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ حَقَّ الْعَالِمِ عَلَى حَقِّ الْوَالِدِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ:
يَا فَاخِرًا لِلسَّفَاهِ بِالسَّلْفِ ... وَتَارِكًا لِلْعُلَمَاءِ وَالشَّرَفِ
آبَاءُ أَجْسَادِنَا هُمْ سَبَبٌ ... لِأَنَّ جُعَلْنَا عَرَائِضَ التَّلَافِ
مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ كَانَ خَيْرَ أَبِي ... ذَلِكَ أَبُو الرُّوحِ لَا أَبُو التُّطْفِ «.
(أدب الدين والدنيا ص 79).

وقد جاء في صحيح الترغيب والترهيب للألباني -رحمه الله- أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال إن أبي لم يزل بي حتى زوجني وإنه الآن يأمرني بطلاقها قال ما أنا بالذي أمرك أن تتعق والدك ولا بالذي أمرك أن تطلق امرأتك غير أنك إن شئت حدثك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الوالد أوسط أبواب الجنة حافظ على ذلك الباب إن شئت أو دغ» قال فأحسب عطاء قال فطلقها.(صحيح الترغيب والترهيب 2486).

قال الملا علي القاري -رحمه الله- في (مرقاة المفاتيح، 147/9): « قَالَ الْقَاضِي أَيُّ: خَيْرُ الْأَبْوَابِ وَأَعْلَاهَا، وَالْمَعْنَى: أَنْ أَحْسَنَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى وُضُوعِ دَرَجَتِهَا الْعَالِيَةِ مُطَاوَعَةً الْوَالِدِ وَمُرَاعَاةً جَانِبِهِ. وَقَالَ عَيْرُهُ: إِنَّ لِلْجَنَّةِ أَبْوَابًا وَأَحْسَنَهَا دُخُولًا أَوْسَطُهَا، وَإِنَّ سَبَبَ دُخُولِ ذَلِكَ الْبَابِ الْأَوْسَطِ هُوَ مُحَافَظَةُ حُقُوقِ الْوَالِدِ. » اهـ.
وقال صلى الله عليه وسلم: « لا يُجْزَى وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيهِ فَيَعْتِقَهُ. »(صحيح الترغيب والترهيب 2479)
فإذا كان هذا في الوالد الطيني، فكيف بالوالد الديني، و «من بر أباه بره أولاده، ومن بر شيخه بره طلابه، فبر أبي الإفادة كبر أبي الولادة». (من تغريدة للشيخ أسامة العمري -حفظه الله-).

هذا والله أعلم، وما كان من خطأ وزلل ونسيان فمن نفسي والشيطان، وما كان من توفيق وإعانة وإحسان فمن الله الرحيم الرحمن، وأسأل الله جل في علاه أن يهدي من تنكب الصراط وضل عن جادة الصواب، وأن يجمع كلمتنا على الحق المبين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(1): مختصر التحفة الاثني عشرة للألوسي -رحمه الله-، ص 1.

(2): مثل محمد المهدي، وعبدالمجيد الرهبي، وأبي الحسن المأري، ومحمد البيضاوي وغيرهم ممن كانوا من أبرز طلابه فتغيروا، والأخير منهم كان ذكياً في غاية الذكاء، حيث يقول فيه شيخه -رحمه الله-: «وأيضاً ذيك البيضاوي والله البيضاوي ذكي في غاية من الذكاء، اسمعوا اسمعوا يا إخوان قال: من من طلابك ألف فيك أنا ألفت فيك، ودافعت عنك، وذكرت لك ترجمة في المقدمة، ما في أحد من طلابك فعل هذا، احذروه هذا داهية يا إخواننا البيضاوي، احذروه جزاكم الله خيراً والله المستعان».

حتى أنه -رحمه الله- عزم على الرد عليه حين قال: وأيضاً (البيضاوي) فقد كنت عزمت على كتابة «تخدير الغبي من تلبسات محمد البيضاوي الأشعبي» فعند أن كان هاهنا في دماج تارة يقول: أحقق في جامع الترمذي، وأخرى: أكتب تفسيراً، وأخرى كذا، مسكين ضيع نفسه.

ولن أرد إن شاء الله إلا على بعض المسائل، وأقول للبيضاوي: أتخوف مقبلاً بما جئت به؟ ولو كنت أخاف ما كتبت هذا، بل أعتبره دلالة على كتبي، فمن الناس من لا يعرف «قع المعاند» فيقول: نطلع عليه، ومن الناس من لا يعرف «المصارعة» أو «الفواكه الجنية»، ومن الناس من لا يعرف الأشرطة، ومن الناس من لا يعرف «الترجمة» أو «هذه دعوتنا وعقيدتنا».

(3): قال الوادعي -رحمه الله- معلقاً: «وهذا باطل باطل باطل، كأنه لم يعرف محمد بن العلاء الهمداني البكيلي، وجبر بن نوف البكيلي أبو الوداك، وسعيد بن يحمّد وولده بكيليان وصالح بن صالح بن حي بكيليون، وعمر بن ذر المرهبي وأبوه بكيليان، وإن أراد في هذا العصر، فهل فتشنا الدنيا كلها، فهذا ليس بصحيح».

(4): يبكي الوادعي -رحمه الله- متأثراً من عقوق طالبه، ومشفقاً على حال تلميذه، وهذا هو دافع كلام الكبار عندما يتسلط عليهم الصغار، الشفقة عليهم والرحمة بهم، لا كما يوهمون من أن سببه حب الزعامة، والخوف على الكرسي، و المنافسة في الشهرة، والحرص على التصدر، والصدع بالحق، والدفاع عن المظلوم، وغير ذلك.